مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد السابع ،العدد الرابع ،ماي 2022، ص - ص:334.-358.

علاقات تونس السّياسية مع الجزائر خلال عهد حمودة باشا (1782–1814م)

Tunisia's political relations with Algeria during the reign of Hammouda Pasha (1782-1814)

د.معاد عمراني(*)
جامعة الوادي، (الجزائر)،
amrani.mouad18@gmail.com

ط/د. أحمد مجوري
مخبر تاريخ الجزائر الاقتصادي والاجتماعي، جامعة الوادي، (الجزائر)،-medjouri-ahmed@univ
eloued.dz

تاريخ الاستلام: 18 /2022/01 **تاريخ القبول:**02 /2022/04 **تاريخ النشر:** 11 /2022/05

الملخص: يناقش هذا المقال علاقات تونس السّياسية مع الجزائر بين سنتي 1782 و1814م، وقد مثّلت هذه الفترة حكم الباي حمودة باشا في تونس، والذي بفضله استعادت تونس مكانتها على السّاحة الدّولية –بعد فترة من الأزمات السياسيّة والصّراعات على السّلطة أثّرت سلباً على صورتها مغاربياً ودولياً–، وذلك عن طريق مجموعة من الاصلاحات مسّت جميع الأصعدة.

كما أخذت العلاقات السّياسية مع الجزائر خلال فترة حكمه منحى آخر وصلت إلى الوقوف بنديّة مع حكامها وإعلان الحرب ضدّهم، بعد أنْ كان أسلافه في حالة شبه تبعية لحكومة الجزائر بسبب الدّور الذي لعبته في استعادة عمه محمّد بن حسين باي حكم تونس سنة 1756م.

الكلمات الدالة: العلاقات السّياسيّة؛ تونس؛ الجزائر؛ حمودة باشا؛ التبعية؛ 1782؛ 1814.

Abstrac: This article tackles Tunisia's political relations with Algeria between the years 1782 and 1814 A.D. This period represented the rule of Bey Hamouda Pasha in Tunisia thanks to which the Tunisian state regained its place on the international scene through a set of reforms that touched all levels. This came after a period of political crises and power struggles that negatively affected the image of Tunisia in the Maghreb region and the international arena.

Political relations with Algeria during his reign took another course that reached the point of dealing equivalently with its rulers and declaring war against them, while his predecessors were in a

* المؤلف المرسل.

	state of almost subordination to the government of Algeria because of the role that the latter played in recovering the rule of Tunisia by his uncle Mohammed Bin Hussein Bey from Ali Pasha in the year 1756 AD.
Keywords:	political relations; Tunisia; Algeria; Hammouda Pasha; Dependency; 1782; 1814.

1. مقدّمة:

ربطت تونس والجزائر علاقات على جميع الأصعدة بحكم الجغرافيا والتّاريخ المشترك بين البلدين، فقد انضوت كلاهما تحت الحكم العثماني خلال القرن السّادس عشر ميلادي؛ وقد كانت الجزائر أوّل الإيالات المغاربيّة ظهوراً سنة 1520م، وساهمت بدورها (الجزائر) في التحاق تونس بركب الإيالات العثمانيّة في بلاد المغرب سنة 1574م، فقد أشارت الدّراسات التي تناولت العلاقات السّياسيّة بين البلدين خلال الفترة الحديثة، بأنّه غلب عليها طابع التّوتر، وبأنّ الجزائر بحكم مكانتها وقوتها في تلك الفترة فرضت على تونس نوعاً من الهيمنة وأصبحت الأخيرة في شبه تبعية للجزائر، خاصة خلال الفترة الأولى من حكم الأسرة الحسينية (1705-1957م)، لكن أوضاع تونس تغيّرت شيئاً فشيئاً مع وصول حمودة باشا الحسيني إلى الحكم (1782-1814م). فهل واصل حمودة باشا على نهج أسلافه في علاقاته السّياسية مع الجزائر، أم أنّه استطاع فرض وضع جديد؟ وفيما تجلت أهم مظاهر هذه العلاقة؟

أهميّة الدّراسة:

جاءت أهميّة هذه الدّراسة من كونها تُسلط الضوء على العلاقات السياسية بين البلدين المتجاورين تونس والجزائر خلال الفترة الحديثة، وهي مرحلة مهمة في تاريخ القطرين لم تحظ بما يلزم من الاهتمام والبحث.

منهج الدّراسة:

اعتمدنا خلال دراستنا هذه على المنهج التّاريخي الذي يعتمد الوصف والتّحليل نظراً لطبيعة الموضوع المعالج، خاصة فيما تعلّق منه بالحملات العسكريّة والحروب التي دارت بين الطّرفين خلال فترة الدّراسة.

أهداف الدّراسة:

كان هدفنا من هذا البحث الخروج بدراسة أكاديميّة في موضوع العلاقات السّياسيّة بين تونس والجزائر خلال الفترة العثمانيّة، كما كان من بين أهدافنا أيضاً مناقشة موضوع الهيمنة الجزائريّة على إيالة تونس وحالة شبه التّبعيّة التي أصبحت عليها تونس للجزائر خلال فترة الدّراسة، ومساعي حمودة باشا للتّخلص من هذه التّبعيّة.

وقد قمنا بمعالجة الإشكاليّة التي طرحناها من خلال الوقوف على ثلاث محاور أساسية؛ تطرقنا في الأوّل إلى العلاقات السّياسيّة بين بايات تونس ودايات الجزائر 1756م- 1782م، وناقشنا في الثّاني محافظة حمودة باشا على حالة السِّلم مع دايات الجزائر بين 1782 و 1806م، بينما ركّزنا في المحور الثّالث على دور حمودة باشا وحروبه ضدّ الجزائر من أجل التّخلص من تبعيتها ما بين 1807-1814م.

2.العلاقات السّياسية بين بايات تونس ودايات الجزائر 1756م- 1782م

قبل الخوض في تفاصيل العلاقات السّياسية بين تونس والجزائر،خلال سنتي 1782 و1814م، كان لزاماً علينا الرُّجوع بالزّمن إلى الوراء قليلاً، وبالضّبط إلى سنة 1756م، لأنّ أحداث هذه السّنة بالذّات كان لها تأثير كبير في العلاقات التّونسية الجزائرية بعد ذلك. وقد درسنا هذه العلاقاتمن خلال نقطتين اثنتين؛ تناولنا في الأولى مساعدة السّلطة الجزائرية لمحمّد بن حسين باي على حكم تونس سنة 1756، أمّا الثّانية فتطرّقنا خلالها إلى خضوع بايات تونس لدايات الجزائر ما بين 1756 و1782م.

2. 1. مساعدة السّطلة الجزائرية لمحّمد بن حسين باي على حكم تونس سنة 1756م

2. 1. 1. إيواء حكومة الجزائر لأبناء حسين بن علي

وصل علي باشا (1735-1756م) إلى حكم تونس بعد صراع مع عمه الباي حسين بن علي (1705-1740م) عُرِف بالصّراع الباشي الحسيني؛ نسبة لطرفي هذا الصّراع، وعن طريق حملة عسكرية جزائرية أطاحت بالباي حسين بن علي الذي فرّ رفقة أولاده إلى القيروان، وحاول منها استعادة عرشه،غير أنّه فشل. في حين استطاع يونس بن علي باشابعد

عدة معارك عزله في مدينة القيروان ومحاصرتها[1]. وفي هذه الأثناء غادر محمّد بن حسين باي الذي كان يحكم سوسة باسم والده في منتصف سنة 1739م إلى قسنطينة بعدما سَلَّم حكم سوسة لشقيقه محمود باي، وكان الهدف من رحلته هذه استمالة باي قسنطينة إلى صف الحسينيين، وعندما فشل توجه لمقابلة داي الجزائر إبراهيم باشا (1732-1745م) لمساعدة والده في حربه ضد علي باشا، لكّن الدّاي كان منشغلاً بمواجهة مشاكله الدّاخلية، ما جعل محمّد باي يبقى في الجزائر ينتظر استئناف المفاوضات مع الدّاي إبراهيم باشا. ولنفس المهمّة توجه الشّقيق الثّاني علي باي إلى الجزائر في محاولة حشد أكبر عدد ممكن من القبائل الجزائرية الكبرى. وفي خضم هذه الأحداث تمكن يونس بن علي باشا من الظّفر بحسين بن علي في القيروان وقتله سنة 1740م، وعندما علم محمود باي بذلك غادر سوسة والتحق بشقيقيه الذين كانا لا يزالان في الجزائر على مثن سفينة أرسلها له أخوه محمّد من هناك[2]. ويقول صاحب الاتحاف بأنّ أبناء حسين بن علي باي أقاموا في الجزائر مدة طويلة يطلبون مساعدة داياتها وعساكرها على استعادة ملك أبيهم[3].

بقي أبناء حسين بن علي باي: محمّد، وعلي ومحمود حوالي ستة وعشرون سنة بأرض الجزائر طالبين اللّجوء عند داياتها، وربما يعود سبب استقرارهم كل هذه المدّة في الجزائر للاستقبال الحسن الذي وجدوه عند داياتها، ويؤكّد الزّهار حُسن المعاملة التي لقيها أبناء حسين بن علي في قوله: «**وكان إبراهيم باشا، لما أتوه والتجأوا إليه، يعظمهم ويقرب مجلسهم، ويعرف حقهم. واعتذر لهم عما صدر منه في جانب والدهم حسين بن علي، من نصرة ابن عمهم علي باشا عليه**»[4]، إضافة إلى أنّهم كانوا يشكلون وسيلة ضغط على علي باشا لصالح حكومة الجزائر[5]، حيث وعدهم الدّاي بمساعدتهم على استعادة عرش تونس، وتحقق لهم ذلك سنة 1756م عن طريق حملة عسكرية جردها الدّاي علي بوصبع (1754-1766م) بقيادة باي قسنطينة حسن المعروف بأزرق عينه ضدّ علي باشا.

2. 1. 2. الحملة الجزائرية على تونس 1756م وإعادة الحكم لأبناء حسين بن علي

رغم الدّور الذي لعبته السّلطة في الجزائر من أجل وصول علي باشا لحكم تونس، إلّا أنّ العلاقات بين الجارتين عرفت بعض التّوترات، لأنّ الأخير سرعان ما أخذ يعمل على

التّخلُّص من النّفوذ الجزائري[6]، رغم وعودهللدّاي ابراهيم باشا (1732-1745م) بإلحاق تونس بحكومة الجزائر بمجرد وصوله للحكم[7]. كما قام علي باشا بقطع الاتاوات التي كان يدفعها لحكومة الجزائر، وربما يعود ذلك إلى وفاة الدّاي إبراهيم باشا وتولي، ابن أخيه، إبراهيم الصّغير (1745-1748) مكانه، وهو ما جعل الدّاي الجديد يرسل ضدّه (علي باشا) حملة سنة 1746م أخفقت أمام أسوار مدينة الكاف، وأعاد الدّاي علي بوصبع (1754-1766م) الكَرّة سنة 1756م[8].

أعطى الدّاي توجيهاته لباي قسنطينة بصفته قائدًا عامًا لهذه الحملة، كما دعا لمحمّد بن حسين باي بالنّصر واسترداد عرشه من علي باشا. وكانت الحملة تتألف من نحو خمسة آلاف (5.000) جندي من المشاة وألف (1.000) من الفرسان وعدد كبير من فرسان العرب الذين ينتمون إلى جهات مختلفة جزائرية وتونسية[9]. وصلت الحملة إلى الكاف في السّادس (06) من جوان 1756م وتمكّنت من دخولها بعد معارك عنيفة مع الجيش التّونسي، في الثّاني والعشرين (22) من نفس الشّهر، وفي بداية الشّهر الموالي (جويلية) تحركت الحملة باتجاه مدينة تونس وتمكنت منها في الثاني (02) من سبتمبر بعد عدّة معارك خلال شهري جويلية وأوت، وسُلِّمت السّلطة فيها لمحمّد بن حسين باي بعد التخلّص من علي باشا[10].

ونظير ما قدمته الجزائر لأبناء حسين بن علي خلال هذه الحملة، وقبل رجوع الجيش الجزائري إلى أرض الوطن، عقد حسن أزرق عينه باي قسنطينة معاهدة مع باي تونس الجديد مُحَمَّد بن حسين باي جعلت الأخير في خضوع وتبعية لدايات الجزائر.

2. 2. خضوع بايات تونس لدايات الجزائر ما بين 1756 و1782م

2. 2. 1. معاهدة 1756م بين محمّد بن حسين باي وحكومة الجزائر

بعد استرجاع أبناء حسين بن علي عرشهم من علي باشا، بمساعدة حكومة الجزائر، اعترفوا في المقابل بسيادة داي الجزائر عليهم عن طريق معاهدة عُقدت بين الطّرفين سنة 1756م[11]، وقد أطلق حمدان خوجة وصف "المخزية" على هذه المعاهدة نظراً للشّروط التي فرضها الطّرف الجزائري على باي تونس، ومن جملة هذه الشّروط:

- هدم تحصينات مدينة الكاف الواقعة على حدود تونس الغربية مع الجزائر.
- العلم التّونسي عند رفعه يجب أنْ لا يتجاوز منتصف السّارية.
- تحترم سلطات تونس وكلاءداي الجزائر وباي قسنطينة كاحترامهالسفراء البلاطات الأوروبية.
- تُحْتَرَم سفن الدّولة الجزائرية عندما ترسو بموانئ إيالة تونس.
- تعهد باي تونس بإرسال ضريبة سنويّة وحمولة مركب من الزّيت وعدداً كبيراً من الهدايا إلى داي الجزائر وباي قسنطينة وحاشيتهم[12].
- الالتزام بدفع مصاريف الحملة الجزائرية التي قادت محمّد باي وعلي باي إلى تونس[13].

وقد قام الجيش الجزائري بعدما تمكّن من دخول مدينة تونس بالعبث بقصور البايات ونهبها، وطال هذا الاعتداء الأهالي وممتلكاتهم[14]، وتجاوزه إلى اقامات قناصل الدّول الأوروبية كفرنسا، السّويد، الدّنمارك، هولندا، والامبراطوريّة النّمساوية، لأنّ قناصلها كانوا يقدمون المساعدة للباي المخلوع أثناء الحملة، ولم تسلم من هذه التّجاوزات إلّا دار قنصل إنجلترا[15]. وقد تناولت الكثير من المصادر تفاصيل المغانم التي رجعت بها الحملة إلى الجزائر، فقد كتب حمدان خوجة قائلاً: «**وعاد ذلك الجيش المنتصر إلى الجزائر محملا بكنوز ثمينة**»[16]، بينما ذكر بلانتي (Plantet) بأنّهم حملوا معهم كل الذّهب والمال والأثاث الثّمين الذي وجدوه في قصر باردو، وفي كل المدينة وعدد كبير جداً من العبيد[17]. وأصبحت تونس بعد حملة 1756م والمعاهدة التي تلتها في تبعية للجزائر لمدة فاقت الخمسين (50) سنة.

2. 2. 1. مسايرة بايات تونس لدايات الجزائر ما بين 1756 و 1782م

كانت تونس خلال فترة حُكم كل من محمّد باي (1756-1759م) وعلي باي (1759-1782م) في علاقة تبعية لدايات الجزائر، حيث كان هؤلاء البايات ملزمون بدفع مبالغ كبيرة سنوياً لحكومة الجزائر حسب ما تمّ الاتفاق عليه في معاهدة سنة 1756م[18]، فعلى سبيل المثال وفي سنة 1781م طلب داي الجزائر من باي تونس مبلغ سبعمائة وخمسون ألف (750.000) ريال، لكّن الأخير دفع منها مائتي ألف (200.000) ريال فقط، كما فرض عليه كميات كبيرة من الزّيت لأجل انارة مساجد العاصمة ومقامات الصّالحين بها[19]، وأصبح لدايات الجزائر مقابل تأييدهم لأبناء حسين بن علي باي حق بيع الأنعام التي يرسلونها

إلى تونس بأسعار تسبق مثيلاتها التونسية[20]، وكانت الهدايا ترسل أيضا لباي قسنطينة ولكبار شخصيات الدّولة في الجزائر، وصارت ضريبة سنوية لا يمكن لبايات تونس أن يتخلفوا عن آدائها دون أنْ يعرضوا أنفسهم لخطر الحرب مع الجزائر[21]، وغير ذلك من أشكال التّبعية.

لم تكن الإتاوات والهدايا فقط هوما يقدمه بايات تونس لحكّام الجزائر، بل كان على هؤلاء البايات (محمّد باي وعلي باي) الاستجابة لأوامر دايات الجزائر، وتنفيذ رغباتهم ورغبات بايات قسنطينة وكبار مساعديهم، وكذلك تجنّب كل ما يثير نقمتهم وحاشيتهم[22]، ومن هذه الأوامر؛ قتل آغا قصبة تونس الذي تجرأ على ضرب ساعي بريد قسنطينة لأنّ الأخير شتم بعض التّونسيين وأراد أن يستولي على بضاعتهم، وما كان من محمّد باي تونس إلّا الاستجابة[23]. والحال نفسه كان عليه علي باي بعد وفاة أخيه محمّد وتوليه حكم تونس سنة 1759م، فقد استجاب لأمر السّلطات الجزائرية بشأن الفرنسيين الفارين من القالة الجزائرية إلى طبرقة التونسية، ويتعلّق الأمر بايقافهم مع أنّ ذلك سبَّب له حرجاً كبيراً مع السّلطات الفرنسية، وهو ما جعله يبعث لها برسالة ترضية[24].

كما كانت الدّول الأوروبية تحرص على إرضاء دايات الجزائر في بعض الأحيان للوصول إلى مكاسب لها في تونس، لأنّها كانت على عِلْمبتأثير دايات الجزائر على بايات تونس وعلى قراراتهم، فنجد أنّ البندقية مثلاً حصلت على رسالة توصية من داي الجزائر جعلت علي باي تونس يوافق على عقد اتفاقية معها بنفس شروط معاهدتها مع الجزائر[25]. وهذه فقط بعض النّماذج أمّا الأمثلة فكثيرة جداً، ولا يسعنا التّطرق إليها في هذا المقام.

3. محافظة حمودة باشا على حالة السِّلم مع دايات الجزائر بين 1782 و 1806م

ورث حمودة باشا حكم تونس عن والده علي باي، لكن هذه التّركة كانت ثقيلة على شاب في مقتبل العمر، حيث كانت البلاد خلال تلك الفترة في حالة ضعف وتبعية لدايات الجزائر. لذلك حافظ الباي الجديد على حالة السلم مع جارته الغربية إلى غاية سنة 1806م.

3. 1. استمرار حمودة باشا في الوفاء بالتزامات تونس لحكومة الجزائر

3. 1. 1. وصيّة علي باي تونس لابنه حمودة باشا

حافظ محمّد باي وعلي باي، أبناء حسين بن علي، منذ 1756م على تبعيتهم لدايات الجزائربعد المساعدة التي قدموها لهم من أجل استعادة عرش أبيهم في تونس، وفي هذا الاطار جاءت وصيّة علي باي عندما أحسّ بدنو أجله لولي عهده حمودة باشا، حيث حثّه على أن يلتزم بإرسال الإتاوة السّنوية كعادة البايات الحسينيين إلى الجزائر، وقد أورد الزهّار هذه الوصيّة على لسان علي باي في كتابه: «**العشر والخراج الذي تقبضه، أعط بعضه للجزائر وبعضه لمصاريف المملكة وبعضه لتعيش به، وإياك أن تجعلهم أعداء**»[26].

لقد تطرقنا في الفقرات السابقة إلى مسايرة بايات تونس (أبناء حسين بن علي باي) لحكام الجزائر نظير ما قدموه لهم من مساعدات لاسترجاع عرش أبيهم من علي باشا، وكان هؤلاء البايات لا يرفضون طلباً لدايات الجزائر وبايات قسنطينة وحاشيتهم، فضلاً عن الاتاوات والهدايا التي يرسلها البايات الحسينيين سنوياً إلى حكومة الجزائر، وهدفهم من كل ذلك تحاشي غضب دايات الجزائر، والعبارة التي وردت في وصية علي باي قبل وفاته لحمودة باشا: **وإياك أن تجعل منهم أعداءً** تعود بالتّأكيد على دايات الجزائر، وفي ذلك تحذير واضح لحمودة باشا من معاداتهم، وما يمكن أنْ يسببه هذا العداء من متاعب للباي ولإيالة تونس عامة.

3. 1. 2. مسايرة ظاهرية من حمودة باشا لدايات الجزائر

كانت ظروف تونس الدّاخلية عند اعتلاء حمودة باشا العرش صعبة للغاية، فقد انتشر فيها الطاعون سنتي 1784 و1785م من جهة، وساءت علاقاتها الخارجية مع البندقية التي دخلت معها في حرب منذ شهر جانفي 1784م، وبقيت كذلك إلى غاية سنة 1792م، كما كان التّوتر السِّمة الغالبة على العلاقات التونسية الاسبانية؛ إلى غاية 1791م، عندما توصّل الطّرفان إلى عقد معاهدة صلح بوساطة جزائرية من جهة أخرى[27]. ومن غير المستبعد أن يكون هذا الخضوع والتّبعية لدايات الجزائر وبايات قسنطينة، خلال تلك الفترة، بدافع الخوف من السّلطان العثماني أو الجيش الجزائري الذي استطاع تحقيق عِدة انتصارات على الجيش التونسي قبل ذلك[28]، وقد يكون للدّاي مُحَمَّد بن عثمان (1766-1791م) وكذلك صالح باي قسنطينة (1771-1792م) -اللّذان تزامنت سنوات حكمهم الأخيرة مع السّنوات الأولى لحكم حمودة باشا في تونس (حوالي عشر سنوات)- دور في استقرار العلاقات

بين البلدين، نظراً لأنّ الجزائر خلال هذه الفترة عرفت استقراراً سياسياً راجع لقوة شخصية الدّاي وطريقته في تسيير شؤون البلاد[29].

لقد كانت هذه الأسباب وغيرها دافعاً لحمودة باشا لأن يواصل العمل بسياسة والده علي باي في تعامله مع سلطات الجزائر، فبالنّسبة للضّريبة السّنوية استمر في ارسالها لحكومة الجزائر منذ توليه السّلطة في تونس سنة 1782م وإلى غاية 1806م. وكانت هذه الإتاوة عبارة 250 جرة من الزيت، و50 جرة سمن مملح، و20 جرّة صابون، وهدايا لكبار أرباب الدّولة من الشواشي والسروج المطرزة والشالات الجربية الناعمة، وعطر الورد، بحيث قُدِّر ثمنها بـ مائة وخمسون ألف (150.000) جنيه[30]، ففي سنة 1784م أرسل حمودة باشا الهدية السّنوية عبر البحر عن طريق سفينة فرنسية[31]، كما قَدِم الحاج علي وكيل الجزائر بإيالة تونس في أكتوبر من سنة 1795م على متن سفينة تابعة للبندقية يحمل الضّريبة السّنوية التي كلفه الباي حمودة باشا إيصالها لحكومة الجزائر[32]، وكانت تونس في حرب مع إيالة طرابلس وقتئذ بسبب استيلاء علي برغل حاكم طرابلس الجديد على جزيرة جربة التّونسية.

كما بقي حمودة باشا على عهد والده في استجابته لرغبات دايات الجزائر وتنفيذه لأوامرهم، حيث وبعد معاهدة الصلح بين الجزائر واسبانيا التي تمت في 14 جوان 1786م[33]، ألحّت السلطات الاسبانية على داي الجزائر ووزرائه من خلال مراسلات كانت بين الطّرفين، وطلب فيها الاسبان من الجزائريين استخدام نفوذهم لدى باي تونس الذي لبى رغبة الداي مُحَمَّد بن عثمان بخصوص هذا الموضوع، وتوّج في الأخير بإبرام معاهدة بين تونس واسبانيا في جانفي 1791م[34]. وأستمر باي تونس يُقدِّم الهدايا لكبار المسؤولين الجزائريين، والضّيافات والإحسانات للمبعوثين من داياتها وباياتها[35].

وما يجب التنويه إليه في هذا المقام، هو أنّ حمودة باشا ورغم ما ذكرناه من مسايرته لدايات الجزائر وبايات قسنطينة، كان قد أعدّ مشروع إصلاحات شاملة بهدف النّهوض بإيالة تونس والارتقاء بها إلى مصاف الدّول القوية المتطوّرة، وهذا بمساعدة وزراء حكومته وحاشيته الذين وضع فيهم كل ثقته. وهو ما سوف نتطرق إليه ببعضٍ من التّفصيل في العنصر الموالي.

3. 2. إصلاحات حمودة باشا في تونس وسعيه للتخلّص من تبعية بلاده للجزائر

كانت الإصلاحات أكثر من ضرورة في مشروع حمودة باشا للنهوض بالبلاد، ولم تثنه العقبات عن بلوغ هدفه. ورغم تعددمجالات هذه الإصلاحات، إلّا أننا أكتفينا بالإشارة إلى الجانبين الاقتصادي والعسكري، بينما لم نتعرض لبقية الجوانب لبعدها عن موضوع الدّراسة.

3. 2. 1. إصلاحات حمودة باشا في الميدان الاقتصادي

رغم الظّروف التي رافقت وصول حمودة باشا للحكم من فراغ الخزينة وانتشار المجاعات والأوبئة، إلاّ أنّ ذلك لم يثنه عن المضي قُدمًا نحو اصلاح أوضاع البلاد؛ خاصة الاقتصادية منها، وربما هذه الظّروف نفسها كانت دافعاً له لانتهاج سياسة اقتصادية بدأها بالابتعاد عن الإسراف[36]، ثمّ الْتَفَتَ إلى الجباية، وأولاها عناية خاصة كذلك، ومنها أنّه طلب من وزرائه تدابير جبائيّة تناسب الوقت والحال[37]. وتوسعت الإصلاحات بعد ذلك فشملت الزّراعة والصناعة والتّجارة.

بدأ حمودة باشا اصلاحاته الزّراعية بتشجيع الفلاحين، حيث خفف عليهم الجباية، كما حماهم بموجب قرار أصدره يهدف إلى الحد من شجع التّجار الأجانب الذين كانوا يشترون منهم المحاصيل قبل استوائها بأثمان بَخْسَة[38]. وزيادة في حماس الرّعية للعمل، كان الباي ينزل بنفسه لممارسة النّشاط الزّراعي بهنشير المرناقية[39]. وزيادة على جودة المنتوجات التّونسية سعى حمودة باشا إلى زيادة الإنتاج باستعمال الطّرق العلمية الحديثة، ونتيجة لهذه الجهود استصلحت الأراضي وأصبح الإنتاج في تونس يزداد سنة بعد سنة وبكميات معتبرة خاصة الحبوب كالقمح والشعير، إضافة للزّيتون وزيت الزّيتون، وكذلك الأمر بالنسبة للأنعام بعدما منع ذبح البقر والماعز والغنم في البلاد التّونسية[40].

وفي مجال الصّناعة قام الباي بتشجيع الصناعة المحلية، حيث وفر لها المواد الخام عن طريق المعاهدات التّجارية مع الدّول الأوروبيّة هذا من جهة، وأصبحت هذه الدُّول أسواقاً للمنتجات التّونسية بفضل نفس هذه المعاهدات من جهة ثانية، وقد تزامنت إصلاحات حمودة باشا مع تواجد الأندلسيين والأسرى المسيحيين في تونس حيث كان لهم دور في ازدهار صناعات وحرف محلية كثيرة في عهده، كما شجع الصّناعة التّونسية من خلال حرصه على أنْ

تكون الهدايا التي تقدم له شخصيا في المناسبات، والهدايا التي يقدمها هو بنفسه للباب العالي أو لبعض الدّول الأوروبية من الصّناعات المحليّة[41]، ولقد كان الباي يفتخر بمصنوعات بلاده، حيث لبس المنسوجات المحلية من منتوجات سوسة وجربة والحمامات، وافتخر بها وشجع النّاس على لبسها، فما لبث أن اقتدى به حاشيته ثمّ عامة النّاس وذلك رفعاً للكساد الذي عرفته هذه الصّناعات[42]. وأهم الصناعات التي ازدهرت خلال هذه الفترة، وعرفت رواجاً داخل البلاد التّونسية وخارجها: صناعة الشّاشية، المنسوجات، العطور، الحُلي، الخزف السّجاد، والجلود[43].

وبالنّسبة للتّجارة، ونظراً لأهميتها ودورها في تحريك عجلة الاقتصاد، فقد أولاها الباي حمودة باشا منذ جلوسه على عرش الإيالة سنة 1782م عناية خاصة، ومنه أنّه أمر فور اعتلائه العرش ببناء سوق جديدة عُرِفت بسوق الشواشين، وبنا وزيره يوسف صاحب الطابع سوقاً أخرى سنة 1813م سُميت بالسوق الجديدة، وازدهرت في هذه الأسواق العديد من الأنشطة التّجارية[44]، كما أمر بتنظيم الأسواق القديمة، ففي مارس 1800م أمر بإزالة الدّكاكين؛ وهي مساحة من الطّريق العامة يضمها التّجار إلى محلاتهم للانتفاع بها[45]، وشجع تجارة القوافل داخل تراب الإيالة[46]. أمّا التّجارة الخارجية فعمل الباي على تحريرها من سيطرة التّجار الأوروبيين، بحيث تركز جزء مهم منها في أيدي تجار أهل البلاد[47]، وتمّ ذلك عن طريق تخصيص رخص تصدير الحبوب والزّيت لهم دون غيرهم، واعفائهم من الضّريبة المقررة على تصدير هذه المنتوجات، وأصبح بذلك التّونسيون سنة 1808م يسيطرون على ثلاثة أرباعها، وفاق عدد العاملين في هذا المجال مائة وخمسون تاجرا تونسياً منهم الباي وحاشيته، بينما تراجع عدد الشركات الفرنسية التي تشتغل في التّصدير على عهد حمودة باشا إلى خمس (05) مؤسسات فقط بعدما كان عددها عشرون (20) قبل ذلك، ولم يبق من مؤسسات إيطاليا إلاّ واحدة أو اثنتين ينحصر عملها في بيع الخمور للأوروبيين[48].

ونظير هذه الإصلاحات أقبل الناس على العمل، فمارسوا الفلاحة والتّجارة والصّناعة وازدهرت البلاد من جديد وانتعش اقتصادها[49]. ومن المؤكّد أنّ هذا الازدهار الاقتصادي

انعش خزينة الدّولة، ممّا انعكس ايجاباً على المجالات الأخرى، وشجع الباي على توسيع دائرة اصلاحاته،كما أنّاهتمامه الكبير بالجانب العسكري، الذي جعله في المرتبة الثّانية بعد الاقتصاد، دليل على سعيه الحثيث من أجل استرجاع تونس مكانتها بين الأمم.

3. 2. 2. إصلاحات حمودة باشا في المجال العسكري

جاء في مقدّمة ابن خلدون ما نصّه: «**المُلكُ بالجُندِ، والجُندُ بالمالِ، والمالُ بالخراجِ، والخراجُ بالعمارَةِ، والعمَارَةُ بالْعَدلِ، والعدلُ بإصلاحِ العُمَّالِ، وإصْلاَحُ العمَّالِ باسْتِقامةِ الوزراءِ**»[50]، ومن الواضح أنّ حمودة باشا بحكم ثقافته الواسعة –كما ورد ذلك في الكثير من الكتابات والمصادر التّاريخية– كان يعرف هذه المقولة حق المعرفة، فقد حاول جعلها واقعا ملموساً من خلال اهتمامه بالمجال العسكري، بعد أن وفّرت له الإصلاحات الاقتصادية المال اللازم لذلك، وكان هدفه من كل ذلك أنْ يَدْعَمَ أُسُسَ مُلْكِهِ، وينهض بدولته ويعيد لها مكانتها، ويحميها من التّدخلات الأجنبيّة.

كان اهتمام حمودة باشا بالجيش والأسطول نابعاً من شغفه بالحياة العسكريّة، منذ صغره، كما كانت رغبته في الاستقرار الدّاخلي وتحسين قدرته على الحد من التّدخلات الأجنبيّة من أهم أسباب تدعيم إمكانيات تونس الحربيّة، وفي هذا الشأن أنفق الباي أموالاً طائلةً من أجل تقوية إمكاناته الحربيّة سواءً بالنّسبة للجيش البري، أو الأسطول البحري، وكان شديد الحرص في اختيار أفراد الجيش وزيادة أعدادهم خاصة من جند التّرك، كمازاد في مرتباتهم عدة مرات قبل المعارك وبعدها[51]. وقام سنة 1787م ببناء مصنع للبارود وآخر لصناعة المدافع، وفي 1795م أنشأ مصنعاً لقذائف المدفعية[52].

كانت طموحات حمودة باشا أكبر من بناء جيش قوي وبعض المصانع للذخيرة الحربية، لذلك دعّم الاستعدادات الآنفة الذكر بحرصه على تحصين البلاد، فأمر سنة 1802 ببناء سور مدينة تونس الذي ضمّ ستة (06) أبراج، وقام بتجهيزها بالمدافع وبما يلزمها من الجنود، وأمر ببناء خمس (05) مراكز لسكنى عسكر الترك، وبتحصين مدينة وميناء حلق الوادي، وأوصى بعدها وزيره مُحَمَّد العربي زروق وكلّفه بإعادة تحصين مدينة الكاف الواقعة على الحدود الجزائرية التّونسية، فجدّد الأخير قصبتها وحصونها وسورها، وجهزها بما يلزم من الأقوات، والجنود،

والأسلحة، والآلات الحربية[53]. ويُفهم من كل هذه الاستعدادات نيّة حمودة باشا في التّحرّر من هيمنة دايات الجزائر وتدخلاتهم المتكرّرة في شؤون بلاده.

4. حمودة باشا يضع حداً لتبعية تونس لحكومة الجزائر 1807-1814م

بعد أن أتم حمودة باشا خطوته الأولى والمتمثلة في مشروع الاصلاحات التي بدأها منذ توليه منصب الباشويّة في تونس، وما إنْ جنى ثمار هذه الإصلاحات، حتى شرع في التّخطيط للمرحلة الثّانية؛ وهي انهاء تبعية بلاده للجزائر، فقد بدأ حمودة باشا هذه المرحلة بتمرّدهعلى دايات الجزائر، ثم تبعها بإعلان الحرب ضدّهم سنة 1807م.

4. 1. تمرّد حمودة باشا على حكام الجزائر

بين الإصلاحات في تونس وإعلان الحرب والقطيعة مع الجزائر، هناك مرحلة أبدى فيها حمودة باشا تمرده على حكام الجزائر، فاستعمل الجوسسة وحرّض النّاقمين للثّورة ضدّ الحكم العثماني في الجزائر، ثمّ عارض أوامر دايات الجزائر ورغباتهم.

4. 1. 1 استعمال الجوسسة وتحريض الناقمين للثّورة ضدّ الحكم العثماني في الجزائر

كان همّ حمودة باشا وهدفه التّخلص من سطوة حكام الجزائر عليه، لذلك سعى بكل ما أوتي من قوة، وبذل كل ما في وسعه لتحقيق هذا الحلم والوصول إلى الهدف المنشود، ولم يكتفي بتحصين البلاد وتركيز جهده في الإصلاحات التي شملت كل المجالات، بل لجأ إلى أساليب جديدة يمكنه بها أن يتحرر من رقابة سلطات الجزائر، أو على الأقل يشغلهم عن التّدخل في شؤون بلاده، فقام بالتجسّس على الجزائريين وقَبِل طلبات اللّجوء السياسي للنّاقمين على السلطة في الجزائر، وحرّض النّاقمين على حكومة الأتراك بالجزائر للثورة ضدّها.

ففي اطار مشروع حمودة باشا للجوسسة ضدّ الجزائر، استمال الأخير إلى صفه عاملين ووكلاء من داخل الجزائر، وأيضاً وكلاء معتمدين من السّلطات الجزائريّة في البلاط التّونسي[54]، أصبحوا محل ثقة لديه وقربهم منه بعد ذلك؛ ومن غير المستبعد أنّه أغراهم بالمال والهدايا من أجل الحصول على معلومات بخصوص نوايا ومخططات سلطات الجزائر تجاه تونس، ومن هذه الشّخصيات الحاج علي وكيل الجزائر في تونس الذي لم يكن يخفي شيئاً عن حمودة باشا من

المعلومات التي تتوفر لديه من حين لآخر[55]، كما استعمل باي تونس جواسيس على هؤلاء الوكلاء، فقد أهدى الباي لأحدهم جارية كلفها باختلاس مراسلات حكومة الجزائر مع هذا الوكيل، وكانت الجارية تأخذ المراسلات التي تحتاجها بهدف نسخها، ثمّ تقوم بإعادتها دون علم الوكيل[56]. وجعلَ باي تونس من سانية المرناقية مركزاً للتجسس على أحوال رسل الجزائر والاطلاع على أخبارهم[57]. كما قام حمودة باشا بقبول طلب اللّجوء لمصطفى انجليز باي قسنطينة الأسبق وابنه عندما قدما إلى تونس، حيث أحسن الباي إليه ووعده بإعادته إلى منصبه على رأس بايلك قسنطينة[58]، وربما يرجع فرار باي قسنطينة هذا إلى تونس وطلب اللّجوء هناك إلى العلاقة الخاصة التي كانت تربطه مع حمودة باشا، وكان داي الجزائر قد اكتشف أمر هذه العلاقة، لذا عزل هذا الباي وأمر بإعدامه، لكن الأخير فرّ إلى تونس، وهو ما زاد من غضب الدّاي[59].

وفي سنة 1804م هجم بن الأحرش –زمن حكم عثمان باي (1803-1804م)– على قسنطينة، وهو مغربي زعم أنّه من شرفاء ملوك المغرب[60]، وكان قد ذاع صيته عندما حارب الفرنسيين بمصر، ولما بلغ خبره لحمودة باشا –وقد كانت في خاطره دسيسة على دايات الجزائر، ولم يظهر لهم ذلك خوفا منهم على حسب تعبير الزّهار–، استدعاه ووسوس له قائلا: «**أن رجلا مثلك شجاع ... يجب أن يذهب إلى ملك الترك (بالجزائر) وينزعه من أيديهم ونحن نمدك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك**»[61]، وانتصر ابن الأحرش على عثمان باي الذي توفي سنة 1804م في منطقة واد الزهور، وعين عبد الله باي (1804-1806م) على رأس بايلك قسنطينة واستطاع بفضل مساعدة باشا الجزائر له أن يعيد الأمور إلى نصابها[62]. كما اتّهمت سلطات الجزائر الحكومة التونسية بإثارة القبائل الجزائرية الساكنة على الحدود مع إيالة تونس للثّورة ضدّ باي قسنطينة[63].

4. 1. 2. معارضة حمودة باشا لأوامر دايات الجزائر ورغباتهم

وصل باي تونس إلى مرحلة جاهر فيها بالتّمرد على دايات الجزائر، فلم يعد يأتمر بأوامرهم وينفذ رغباتهم كما كان يفعل قبل ذلك، ويبدو أنّه لم يعد يخشى الصِدام مع الجزائريين، ومن هذه الأوامر، رفض بيع المواشي الجزائرية بأسعار يحددها مسبقا داي الجزائر، والسّماح ببيع

المواشي التونسية أثناء ذلك[64]، وكاتَبَ داي الجزائر في ذلك قائلاً : «**أن البقر أمرنا ببيعه على يد عدلين، وتجمع من ثمنه كذا، وتولى قبضه رسولكم بأمرنا، وإن أرسلتم بعده شيئا للبيع فليكن خطابكم بعدها لوكيلكم، وحاله في ذلك كعامة أهل البلد من غير فرق؛ وقد كنا نرى أن فعلنا معكم سابقا إنما هو ثمرة محبة، وحيث رأيتموه واجبا فلا نسلم هذا الوجوب**»[65]. كما قام باي تونس بالكف عن ارسال الضّريبة السّنوية المتمثلة في شحنات من الزّيت والهدايا التي تَعَوَّدَ بايات تونس تقديمها لحكومة الجزائر، وهو ما أغاظ الدّاي الذي اعتبر هذا التّصرف قطيعة وخروجاً عن الطّاعة من حمودة باشا[66]، وأمر برفع العلم التّونسي عالياً في كل مكان من إيالة تونس، وكان قبل ذلك ومنذ معاهدة 1756م بين الجزائر وتونس يُرفع إلى وسط السّارية كما سبق وأشرنا[67].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ سياسة باي تونس الجديدة وتصرفاته خلال هذه الفترة مع حكومة الجزائر كانت نتيجة الوضع الجديد والمكانة التي أصبحت عليها بلاده، فقد تمكن من تسوية خلافاته مع معظم الدّول خاصة الأوروبيّة منها[68]، وأستطاع إرساء دعائم حكمه للبلاد بعد نجاح اصلاحاته فيها، وتفرغ بذلك للاستعداد للحرب مع الجزائر في حال توترت العلاقات بين البلدين.

4. 2. الحرب ضدّ الجزائر وانهاء التّبعيّة

4. 2. 1. الحملة الأولى على قسنطينة جانفي– ماي 1807م

خلق تمرّد حمودة باشا على دايات الجزائر ومعارضته لهم حالة من التّوتر أفضت إلى قطيعة بين البلدين، وزادت استعدادات التّونسيين وتحصينات مدينة الكاف من غضب داي الجزائر، لكنه أجَّل إعلان الحرب ضدّ حمودة باشا لانشغاله بالتّمرد الحاصل في بايلك الغرب، والمجاعة التي عانت منها مدينة قسنطينة خلال نفس الفترة. ويضيف روسو أسباب أخرى أدّت في النّهاية إلى إعلان حمودة باشا الحرب ضدّ الجزائر؛ ففي سنة 1807م أمر داي الجزائر فرقاطتين من أسطوله بمحاصرة حلق الوادي، والهجوم على بعض القبائل التّونسية القاطنة قرب الحدود بين البلدين، كما وقعت بين يدي باي تونس رسالة سريّة بين باي قسنطينة ورعايا

تونسيين، تهدف إلى تحريض قبائل تونسيّة للثّورة ضدّه والدّخول في طاعة داي الجزائر، فما كان منه إلاّ إعلان الحرب، وأمر قواته بالزّحف على الحدود الجزائرية ومحاصرة مدينة قسنطينة[69].

لقد كانت كل الدّلائل والمؤشرات تؤكّد على نيّة حمودة باشا في إعلان الحرب ضدّ داي الجزائر، وما اصلاحاته واستعداداته إلاّ دليل واضح على ذلك، ولسنا هنا بصدد دراسة شرعية هذا المسعى من عدمه، لكن هدفنا من كل هذا هو البحث في علاقات البلدين والأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب، ومبادرة حمودة باشا بإرسال محاله العسكرية للهجوم على قسنطينة، ونيته في التّخلص من سيطرة الجزائريين، وفي هذا الشّأن يقول صاحب الاتحاف «**فعزم على حربهم، ...، بعد أن التفت إلى تحصين البلاد**»[70]، ويقول مُؤلّف الخلاصة النقيّة: «... **وتهيأ للدفاع عن حوزته وأعلن بما كان يخفيه من حرب الجزائريين لما عيل صبره من مداراتهم**»[71].

تولى أحمد باشا منصب الدّاي في الجزائر سنة 1805م، وكان عبد الله باي (1804-1806م)يشغل منصب باي قسنطينة، لكن الباشا الجديد سرعان ما عزل عبد الله باي، وعيّن مكانه حسين بن صالح باي (1806-1807م)[72]، وكان حسين باي هذا شاباً صغيراً تنقصه الخبرة والتّجربة، ويقول حمدان خوجة بأنّ حمودة باشا اغتنم هذه الفرصة وأرسل في الرّابع والعشرين (24) جانفي سنة 1807م قوة كبيرة إلى مدينة قسنطينة[73]، تألفت من حوالي خمسين ألف (50.000) مقاتل، يقودهم "سليمان كاهية الكبير"[74]، أمّا قوات الجزائر فكانت تحت قيادة حسين بن صالح باي، وكانت تعدادها أقل بكثير مقارنةبمحلة تونس، وقَدِم الحاج مصطفى انجليز مع الجيش التّونسي، على أمل اعادته إلى منصبه في حال انتصار الطّرف التونسي في هذه الحرب، كما وعده حمودة باشا. كانت الجولة الأولى لصالح التونسيين، وفرَّ حسين بن صالح باي قسنطينة بعد الهزيمة التي مُنِي بها إلى ناحية جميلة[75].

ضرب سليمان كاهية حصاراً على مدينة قسنطينة مدة سبعة عشر (17) يوماً حسب حمدان خوجة[76]، وشهراً كاملاً حسب الزهّار[77]، وخلال هذه المدّة بقيت المحلّة التّونسيّة تضرب المدينة بالمدفعية والقنابل، أظهر خلالها سكان المدينة صموداً قلَّ نظيره، ورجحت الكفّة لصالح الجزائريين بعد وصول المدد من الجزائر العاصمة في شكل فرقتين؛ الأولى عن طرق البر

والثّانية عن طرق البحر؛ عبر ميناء عنابة[78]. وبعد عدّة معارك انتصر الجيش الجزائري وفرّ سليمان كاهية مع من بقي من عسكره إلى تونس رغم التعزيزات التي أمدها به حمودة باشا، وغنم الجزائريون ما تركه الجيش التونسي عند فراره من مدافع وخيل وآلات حربية، وكان ذلك في 03 ماي 1807م[79]، ووقع خبر الهزيمة على باي تونس كالصّاعقة[80].

4. 2. 2. الحملة الثانية جوان/ جويلية 1807م

بعد الهزيمة التي تلقاها الجيش التونسي، أصبحت إيالة تونس تحت تهديد القوات الجزائرية، ومخافة أنْ يُفَكِر الجزائريون في استغلال الفرصة والزّحف على مدينة تونس، قرّر حمودة باشا وبمشورة وزرائه الاستعداد مجددا لخوض غمار الحرب مع الجزائريين[81]. ولبى أهل البلاد نداء حمودة باشا لهم، وربما أحسوا لأوّل مرة أنّ الدّفاع عن نظام الباي هو دفاع عن أنفسهم وعن بلادهم[82]، ولم يمض إلاّ أربعون (40) يوماً حتى أصبح الجيش الجديد المكَوَّن من ثمانية عشر ألف (18.000) مقاتل بقيادة الوزير يوسف صاحب الطابع جاهزاً للانطلاق نحو الحدود الجزائرية يوم الجمعة 12 جوان 1807م، ومعه سليمان كاهية وباي قسنطينة المخلوع مصطفى انجليز[83]، بينما يذكر رشاد الامام بأنّ تعداد الجيش التّونسي في هذه الحملة بلغ أربعة وعشرين ألف (24.000) مقاتل مجهزين بأحسن الأسلحة بفضل الإعانة المالية المعتبرة التي قدمها قائد هذا الجيش يوسف صاحب الطابع للباي حمودة باشا[84].

من جهته أمر داي الجزائر بتشكيل جيش وضع قيادته بيد الخزناجي حسن آغا (وزير المالية)، وأَمَرَهُ بأن يتوجّه نحو الحدود الجزائريّة التّونسيّة ويضع تحت إمرته كل القوات الجزائريّة المتواجدة في مدينة قسنطينة بقيادة حسين باي، وأنْ يستولي على مدينة الكاف الواقعة على الحدود بين الإيالتين، ثمّ يزحف بعدها نحو العاصمة التّونسيّة[85]، وبالفعل خرج الجيش الجزائري من قسنطينة باتجاه تونس في بداية شهر جوان سنة 1807م، وقبل وصوله مدينة الكاف وجد القوات التّونسيّة معسكرة على ضفة واد سراط؛ وهو الحد الفاصل بين حدود البلدين[86].

التقى الجيشان في معركة عنيفة يوم 13 جويلية 1807م بمكان يُسمى "سلاطة"[87]، وبكامل الثقة اندفع الجزائريون واستولوا على جزء من المعسكر التّونسي، وخلال هذه المرحلة

ارتكب الجيش الجزائري خطأ كبيراً، فبدل مطاردة القوات التّونسيّة لتحقيق النّصر الحاسم، انشغل بنهب ما تركه التّونسيون وراءهم، وكان ذلك فرصة للطّرف التّونسي بأنْ يُوحِد صفوفه ويستغل الفرصة ليجعل من هزيمته في الجولة الأولى انتصاراً[88]، في حين يرى الزهّار بأنّ انسحاب حسين باي قسنطينة من الميدان خلال الجولة الأولى، خاصة وأنّ المعركة كانت في صالح الطّرف الجزائري هو سبب خسارة هذه الحرب، ثمّ ما لبث أن انسحب حسن آغا هو كذلك بعد أنْ عَلِم بانسحاب باي قسنطينة، الذي أعدمه الدّاي بعد ذلك، وأنّ غنيمة قوات تونس في هذه المعركة كانت من غير قتال ولا عذاب بسبب انسحاب قادة المحلّة الجزائرية[89].

ويُفيدُنا روسو بأنّ انتصار الجيش التّونسي في هذه الواقعة سببه عزيمة قائده يوسف صاحب الطابع الذي استطاع أنْ يرفع معنويات أفراد جيشه وقادته من جديد، ويحققوا النّصر على قوات الجزائر، التي فقدت ما بين ستمائة (600) وسبعمائة (700) قتيل، وعدد كبير من الأسرى، كما سُلِب منها أربعة آلاف بعير، وخسر الجزائريون كل عتادهم الحربي[90]، أمّا رشاد الامام فيُرجع هذا الانتصار إلى شجاعة جنود الجيش التونسي من أبناء البلاد وليس لجند الترك، غير أنّه وفي المقابل نجد قوات الحملة الأولى التي انهزم فيها جيش تونس كانت كذلك مؤلفة من الجنود التونسيين من أبناء البلاد ومن جند الترك، ويضيف بأنّ هزيمة التونسيين في الحملة الأولى تمت بخيانة جند الترك وهروبهم من ميدان المعركة[91].

4. 2. 3. تسوية الخلافات وانهاء حالة التوتر

بعد واقعتي 1807م المذكورتين آنفاً، بدأت العلاقات بين الايالتين تجنح إلى السلم الذي يطبعه الحذر، وحتى يُبرهِن حمودة باشا على حسن نواياه مع حكام الجزائر، ورغبته في التّخفيف من حالة التّوتر بين الإيالتين، قام بإرسال من وقعوا في الأسر من الجزائريين خلال الحملة الثّانية إلى الجزائر؛ عن طريق البحر، ويبدو أنّ تصرف حمودة باشا لاقى استحساناً من داي الجزائر أحمد باشا(1805-1808م)، فَرَدَّ الأخير بالمثل وأرجع أسرى تونس من الحملة الأولى على نفس المراكب التي جاءت بالأسرى الجزائريين في شهر أكتوبر 1807م[92]. كما بادر أحمد باشا بعد ذلك بإرسال وفد جزائري إلى تونس في شهر سبتمبر 1808م من أجل

التّوصل إلى صلح بين الطّرفين، وما لبث أنْ تحقق ذلك في شهر نوفمبر من نفس السّنة، وتحسنت العلاقات بين الجانبين، رغم أنّ هذا الصلح لم يكن نهائيا حسب تعبير روسو[93].

ولذات المسعى أرسل الداي الحاج على باشا (1809-1815م) الأسطول الجزائري بوفد من أجل فتح مفاوضات مع الحكومة التونسية في 24 جويلية 1812م وضرب الأسطول حصاراً على حلق الوادي وبعث برسالة الدّاي إلى حمودة باشا وفيها عرض نهائي للصّلح بين الإيالتين شريطة أنْ تلتزم تونس ببعض التّعهدات، منها إرسال شحنة الزّيت السّنوية إلى الجزائر. وتعبيراً من حمودة باشا عن نيته في انهاء حالة التّوتر بين البلدين وافق في الأخير على إرسال شحنة الزّيت الذي أعتبره وفاء لنذر، على أنْ لا تَعتبر الجزائر ذلك ضريبة سنوية وواجب على الحكومة التّونسية نحوها[94].

وخلال الفترة ما بين 1808م و1814م بقيت العلاقات السّياسيّة بين البلدين على حالها رغم الاستعدادات العسكرية للجيوش البّرية للإيالتين، التي كانت تتم بين الحين والآخر، لكن دون أنْ يُفضي ذلك إلى القطيعة أو إعلان الحرب، كما لم تتطور المناوشات البحرية بين أسطولي الإيالتين إلى معارك ذات أهمية، ولم تُسفِر الوقائع سالفة الذِكر عن خسائر كبيرة أو نتائج خطيرة للجانبين رغم تكررها سنوات 1811، 1812 1813م. والجدير بالذِّكر أنّه رغم ما كان يحدث بين الجانبين من حين لأخر من توترات لم يمنع من وجود نِيَّة للصُلح، ورغبة في وضع حد لحالة التوتر القائمة[95]، ويذكر مؤلف الخلاصة النقية أنّه منذ سنة 1813م لم يكن من الجزائريين حرب ضدّ تونس إلى غاية وفاة الباي حمودة باشا في 10 سبتمبر 1814م، وحتى بعد ذلك؛ أي إلى غاية سقوط مدينة الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي سنة 1830م[96].

5. خاتمة:

وفي ختام هذه الدّراسة نستطيع القول بأننا قد توصلنا إلى مجموعة من النّتائج أهمها:

- كانت إيالة تونس عندما اعتلى عرشها حمودة باشا الحسيني في حالة ضعف وتبعية لدايات الجزائر، بسبب مساهمتهم في عودة أبناء حسين بن علي إلى حكم تونس سنة 1756م.

- اتبع حمودة باشا في بداية حكمه سياسة والده في تعامله مع حكام الجارة الغربية (إيالة الجزائر)، حيث استمر في ارسال الضريبة السنوية والهدايا إلى دايات وحاشيتهم، كما واصل تنفيذه لأوامرهم ورغباتهم حتى ولو كان ذلك ظاهرياً فقط.

- منذ توليه الحكم في تونس، شرع حمودة باشا في اتباع سياسة إصلاحية شاملة، كان الهدف منها استعادة تونس لقوتها ومكانتها إقليميا ودولياً، وانهاء تبعيتها للجزائر.

- استغرقت إصلاحات حمودة باشا واستعداداته من أجل انهاء تبعية تونس لدايات الجزائر ثلاثة أرباع (¾) سنوات حكمه التي دامت حوالي اثنان وثلاثون سنة، وبلغة الأرقام ما يقارب خمسة وعشرون (25) سنة.

- نجح حمودة باشا بعد حوالي سبعين (70) سنة من تبعية تونس للجزائر (1756-1807م) في انهاء هذه التبعية بعد أنْ جنى ثمار مشروع اصلاحاته، وأخذ يستعد للحرب ضدّ الجزائر مستغلاً ظروفها الدّاخلية المتمثلة في الثّورات الشّعبية ضدّ السّلطة الحاكمة وتوالي سنوات المجاعة والأوبئة بداية القرن التّاسع عشر ميلادي (19م) التي أنهكت السّلطة العثمانية بها.

6. الهوامش:

(1) محمّد الهادي الشريف:**تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، ترجمة محمّد الشاوش ومحمّد عجينة، سراس للنشر، تونس، ط 03، 1993م، ص 84.

(2)حسين بن رجب شاوش: **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها**،جمع فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر،ط 01، 2009م، ص 74.

(3)أحمد بن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج 03، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999م، ص 37.

(4)أحمد الشريف الزهّار:**مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر**، تحقيق أحمد توفيق المدني، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص 17.

(5)محمّد الهادي الشريف:**المرجع السّابق**، ص 84.

(6)صالح عبّاد: الجزائر **خلال الحكم التركي 1514– 1830**، دار هومة، الجزائر، 2014، ص 163.

(7)ألفونص روسو: **الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر**،ترجمة محمّد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (د.ت)، ص 177.

(8)عبد الحميد هنيّة:**تونس العثمانية بناء الدولة والمجال**، منشورات أوتار وتبر الزمان، تونس، 2016، ص 174. اختلفت المصادر في تحديد تاريخ انطلاق الحملة الجزائرية نحو تونس، ففي حين تكاد تُجمع المصادر على سنة 1756م، ذكر روسو بأنّ ذلك كان سنة 1755م دون ذِكر الشّهر واليوم، كما لم يذكر تعداد الجيش المكوّن لهذه الحملة، واكتفى بوصفه جيشاً جراراً، تحت قيادة عامل قسنطينة حسن باي. **يُنظر**:ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص 211.

(9) عمار بن خروف: **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 18م/ 12هـ**، دار الأمل، الجزائر، 2017م، ص 165.

(10)عمار بن خروف: **المرجع نفسه**، ص-ص 169-183.

(11)عبد الحميد هنيّة:**المرجع السّابق**، ص174.

(12)حمدان بن عثمان خوجة:**المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق مُحَّد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2006م، ص 125.

(13)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص201.

(14)فاطمة بن سليمان:**الأرض والهوية نشوء الدولة الترابية في تونس 1574–1881**، منشورات Edisciences، تونس، 2006م، ص 212.

(15)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص197.

(16)حمدان بن عثمان خوجة:**المصدر السّابق**، ص 125.

(17) Eugène, P:**Correspondances des Beys de Tunis et de consuls de France avec la cour 1557 – 1830**, Tome Deuxième, Félix Alcan éditeur, Paris, 1894, p.514.

(18)CHERIF, M:**Pouvoir et société dans la Tunisie deH'usaynBin' Ali (1705-1740)**, Centre de Publication Universitaire, Tunis, 2008, p. 185.

(19)عبد الحميد هنيّة:**المرجع السّابق**، ص185.

(20) وليم سبنسر:**الجزائر في عهد رياس البحر**،ترجمة عبد القادر زبادية، دار القصبةللنشر، الجزائر 2006م، ص 164.

(21) عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص-ص 195-196.

(22) نفسه، ص 208.

(23) Eugène, P: Op.Cit, pp. 534-535

(24) Ibid, p. 600

(25)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص-ص 222-223.

(26)أحمد الشريف الزهّار:**المصدر السّابق**، ص 85.

(27)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص 246.

(28)احميدة عميراوي: **علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي**، دار البعث، قسنطينة،د.ت، ص-ص 61-62.

(29) بلبروات بن عتو: "**الداي مُحَمَّد بن عثمان باشا وسياسته 1766-1791م**"، مجلة عصور، جامعة وهران 1، العدد 6-7، ديسمبر 2005م، ص 79.

(30) de Paradis, V:**ALGER AU XVIII E SIECLE**, ADOLPHE JOURDIN IMPRIMEUR- LIBRAIRE- EDITEUR, ALGER,1898, p. 141 .

(31)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص 247.

(32)جيمس ليندر كاثكارت: **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**،ترجمة العربي إسماعيل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م،ص 221.

(33)مُحَمَّد بن موفقي:"**العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر واسبانيا (1200هـ/1786م-1245هـ/1830م)**"، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد العلوم الإنسانية والإجتماعية، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2011/2010م، ص 62.

(34)يحي بوعزيز:"**اسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس**"،مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، المجلد 03،العدد 01، 1988م، ص60.

(35)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص 259.

(36)رشاد الامام:"**سياسة حمودة باشا في تونس 1782- 1814**"، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأمركية، بيروت، د.ت، ص 273.

(37) أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**، ص 16.

(38)رزيقة مُحَّدي:"**الاصلاحات الاقتصادية بإيالة تونس في عهد حمودة باشا (1782– 1814م)**"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية،جامعة بابل، العدد 30، ديسمبر 2016م، ص 89.

(39) أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**، ص 78.

(40) رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص 275، 278.

(41) نفسه، ص–ص 282–285.

(42) أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**، ص–ص 77– 78.

(43)رزيقة مُحَّدي:**المرجع السّابق**، ص–ص 92–93.

(44) نفسه، ص 98.

(45) أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**، ص 34.

(46) رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص293.

(47)احميدة عميراوي:**المرجع السّابق**، ص–ص 43–44.

(48) رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص–ص 295– 296.

(49)حسن حسني عبد الوهاب: **خلاصة تاريخ تونس**، دار الكتبالعربية الشرقية، تونس، ط 03، د.ت، ص 159.

(50)عبد الرحمن بن مُحَّد ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق عبد الله محمّد الدّرويش، دار يعرب، دمشق، ط 01، 2004م، ص 130.

(51) رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص–ص191– 193.

(52)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص 263.

(53)أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص–ص38 –39.

(54)احميدة عميراوي:**المرجع السّابق**، ص 63.

(55)عمار بن خروف: **المرجع السّابق**، ص 265.

(56)رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص 414.

(57)الباجي المسعودي: **الخلاصة النقية في أمراء إفريقية**، تقديم وتحقيق وتعليق مُحَّد زينهم مُحَّد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 01، 2012م، ص 261.

(58)أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص 40.

(59)رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص 423.

(60)أحمد بن المبارك بن العطار: **تاريخ بلد قسنطينة**، تحقيق وتعليق وتقديم عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 111.

(61)أحمد الشريف الزهّار:**المصدر السّابق**، ص 85.

(62)مُحَمَّد الصالح بن العنتري:**فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة**، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص-ص 71-73.

(63)ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص259.

(64)وليم سبنسر:**المرجع السّابق**، ص 164.

(65)أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص 41.

(66)حمدان بن عثمان خوجة:**المصدر السّابق**، ص 128.

(67)ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص278.

(68) رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص 365.

(69)ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص-ص278 -279.

(70)أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص38.

(71)الباجي المسعودي:**المصدر السّابق**، ص 261.

(72)مُحَمَّد الصالح بن العنتري:**المصدر السّابق**، ص-ص72 -74.

(73)حمدان بن عثمان خوجة:**المصدر السّابق**، ص-ص 128-129.

(74)من الأعلاج، تدّرج في المناصب حتى وصل إلى منصب آغا وحق باجة، توفي سنة 1838م في فترة حكم المشير أحمد باي.ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص 279.

(75)de Grammont, H.-D:**Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830)**, ERNEST LEROUX éditeur,Paris, 1887, pp 367- 368.

(76)حمدان بن عثمان خوجة:**المصدر السّابق**، ص 129.

(77)أحمد الشريف الزهّار:**المصدر السّابق**، ص 96.

(78)مُحَمَّد الصالح بن العنتري:**المصدر السّابق**، ص 74.

(79)أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص-ص 42- 43.

(80)الباجي المسعودي:**المصدر السّابق**، ص 261.

(81)ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص 284.

(82)أحمد الشريف الزهّار:**المصدر السّابق**، ص 91.

(83) أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص 45.

(84) رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص 427.

(85) ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص 284.

(86)MERCIER, E:**Histoire de Constantine**, J. MARLE ET F. BIRON IMPRIMEURS-ÉDITEURS, CONSTANTINE, 1903, pp. 326-327.

(87)أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص 47.

(88)MERCIER, E: Op.Cit, p. 327

(89)أحمد الشريف الزهّار:**المصدر السّابق**، ص 97.

(90)ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص 285.

(91) رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص 429.

(92)أحمد بن أبي الضياف: **المصدر السّابق**،ص 49.

(93) ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص-ص 287-288.

(94)رشاد الامام: **المرجع السّابق**، ص 433.

(95) ألفونص روسو: **المرجع السّابق**، ص-ص 299-301.

(96)الباجي المسعودي:**المصدر السّابق**، ص 262.